

في الأدب الانجليزي

شكسبير والأدب العربي

للاستاذ جريس القسوس

(مودة الى الأستاذ غري أبو السود)

يقف من يتعمق في دراسة الأدبين العربى والانجليزى على ظاهرة غريبة حرية باهتمام من يعنون بدراسة الآداب الأفرنجية، أعنى بها التماثل الظاهر بين ما يرد فى كلا الأدبين من قصص وحكم وآراء فلسفية؛ وهو تماثل يحمل المرء على الاعتقاد الجازم بأن أحد هذين الأدبين قد اقتبس من الآخر، أو تأثر به تأثراً بعيداً

وفى روايات شكسبير خاصة من القصص والحكم والكنايات والاشارات ما يثبت أن مؤلف هذه الروايات الخالدة كان

وتفرض علينا أن نلقاهم بوجوه تمثل الحزم وقلوب تضمر العطف والوداد

إنما نمنحك الجوائز أيها الأبناء النجباء لتنسوا هموم الدرس فاذا تصنعون أنتم لمكافأة أساتذتكم؟ إن لنا فى ذمتكم جائزة واحدة ففضلوا بها علينا

أو تدرون ماهى تلك الجائزة؟ هى أن تكونوا أبطالاً يرفعون الوطن ويخدمون الإنسانية

لقد منحناكم خير ما نملك، فامنحوا الوطن والإنسانية خير ما تملكون

أيها الأبناء النجباء

لقد شقينا لتسعدوا، فليس من الكثير أن نطلب منكم أن تشقوا ليسعد الوطن وتسعد الإنسانية

تذكروا يا أبناءنا الأعزاء أن الشقاء فى سبيل الخير هو السعادة الغالية التى يلبسها أرباب القلوب

نكى مبارك

ملأ بعض الالمام بالأدب العربى، وخاصة القديم منه، ولا نقول العكس لأن هذه القصص المتشابهة وردت فى الآداب العربية قبل الانكليزية بعهد طويل.

وأنتى لا أرى مبرراً للزعم بأن شكسبير نقل حكمه وأراه الفلسفية عن الادب العربى، إذ أن الشاعر فى كل آن ومكان وفى أية حالة أو ظرف من ظروف الحياة. لا يخرج عن كونه إنساناً يتألم ويحس بما يحس به غيره من الشعراء عند الامم الأخرى، وإن اختلفوا لغة وجنساً، فالحياة والطبيعة البشرية، اللتان هما المصدران الرئيسيان واللذان يستمد منهما الشاعر المخلد وحيه، إنما هما ثابتتان لا تتغيران أصلاً فى كل بيئة وزمان، فشكسبير والمتنبى، ويرون وعمر بن أبى ربيعة، وشلى وموسيه، وداتى وأبو العلاء، جميعهم خلقوا فى سماء الشعر، واختلجت فى صدورهم أحاسيس وأخيلة وفكر متماثلة بعض التماثل فى المعنى، وإن كانت تختلف بما ألبسته هذه المعانى الرائعة من أثواب قشبية منمقة لهذا ترى العباقرة فى كل باب وفن يتجردون من السفاسف البشرية التافهة والهنات السخيفة التى يتمسك بأذيالها فئة الجهال، كالقروق الدينية والجنسية واللغوية، إذ يتسامى العباقرة عن كل تعصب ذميم عمقوت وينضوون تحت لواء مملكة واحدة هى فوق هذه الممالك التى تظهر متباينة الألوان على المخططات الجغرافية

ولعل هذا القول يصدق على التشابه الظاهر بين الحكم والآراء الفلسفية الواردة فى شكسبير والادب العربى، أكثر منه على الخرافات والقصص العامة.

فهذه تتداولها الألسن من قطر إلى قطر وتتناقلها الأجيال من عهد إلى عهد؛ ولا حرج على الأديب المنتج من تضمين أدبه قصة عامة تلقاها عن أمة أخرى بالرواية أو المطالعة. وللعالم والأديب الكبير بيزا Beza. فصل رومانيا السابق فى فلسطين. أبحاث شيقة حول موضوع شكسبير والخرافات الشرقية. وقد سرد فى محاضرة له قيمة سماها:

Sheakespeare V. the Ohiental Folklore (شكسبير والقصص العامة الشرقية) طائفة من القصص والخرافات التى كانت تدور على ألسنة العوام والفلاحين فى الشرق، وحين

«أرى شجراً يسير، فقالوا: كذبت أو كذبتك عينك، واستهانوا بقولها، فلما أصبحوا، صبحهم القوم، فاكتمسحهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقيل أخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها وقصة أخرى يشير إليها المستشرق الانكليزي الشهير نيكلسون في كتابه Literary History of the Arabs في سياق البحث عن الحياة العامة في القسم الجنوبي من جزيرة العرب ولقد وردت هذه القصة في قصيدة (أسعد كامل أو أبو كرب) التي أطلق عليها نيكلسون اسم (قصيدة الساحرات الثلاث «The Ballad of the three witches» ذلك لما بينها وبين خرافة الساحرات الثلاث. اللواتي يمثلن ذلك الدور المدهش في رواية مكبث. من تشاكل وتشابه عظيمين. والقصيدة كما ستري، موضوع في قالب أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى. وقد نقلها فون كريمر Von Kremer المستشرق الألماني إلى الألمانية مودعا إياها كتابه Altarabische Gedichte وكذلك نقلها نيكلسون إلى الإنكليزية في كتابه المذكور^(١) وفي هذه القصيدة يخاطب أسعد ابنه حسنا ويوصيه بالبطولة، ويسرد له في سياق الحديث قصة الساحرات الثلاث كيف صادفنه غلاماً، فرجت له الكرى أولاً دواء، وأعطته فشرب، وقدمت له الوسطى ضعباً برياً امتطاه وذله، ثم جاءت الصغرى تمرضه فتجنبا. ولما أيقن فيه هذه الجرأة النادرة والقدرة على مقارعة الخطوب، تنبأن له بعهد سعيد ومستقبل باهر، يتنسم فيه ذرى المجد. وهكذا تمت النبوءة فقد أصبح أسعد، على ما جاء في القصيدة، قائد جيش مجر، ثم ملكاً تهابه الأعداء.

وأنت تذكر أن مكبث كان في أول عهده قائدا مغواراً في عسكر الملك دانكين Duncen ولما عاد هو وبنكو Benku مظفرين لقيافي طريقهما، ثلاث عجائز شبط، دأبن القيام بأعمال سحرية خارقة، ولهن القدرة على قراءة المستقبل، ومعرفة الغيب فتنبأن أن سيكون مكبث مبدئياً من الشرفاء، ثم يعتلى العرش. وبعد ذلك بقليل تحقق القسم الأول من النبوءة، فقد اختار الملك القائد مكبث ليكون شريفاً، ثم تعلم كيف

رجع الصليبيون إلى أوروبا نقلوا معهم الشيء الكثير منها، فانتشرت تلك القصص بين الخاصة والعامة في الأوساط الأوربية. فكان شكبير أحد أولئك الذين ذكروا هذه القصص في متوجاتهم الأدبية. وأنا لا أدري إلى أي حد تبلغ هذه النظرية من الصحة. بيد أنني وقفت على قصص عديدة في روايات شكبير، ذكرتني بأخرى في الأدب العربي، شبيهة بها بعض الشبه.

ولا إخال أحداً طالع رواية مكبث Macbeth ولا يذكر لأول وهلة قصة زرقاء اليمامة فشكبير قد ضمن هذه الرواية فكرة الغاب المتحرك. إذ حينما عبأ مكدوف Macduff جيشه العظيم متقها لوالده المغدور به، ومستعيداً ملكه المغتصب من مكبث القائد الطاغية العنيد، بعث مكبث من يستطلع أمر العدو، فاعتلى أحد جنده ربوة عالية تشرف على جيش عدوه. وبدلاً من أن يرى جيشاً لجباً، رأى غاباً كثيفاً يتحرك نحوه رويداً رويداً. فماد الرسول وأخبر مولاه بما رأى. فأيقن مكبث أنه لا محالة هالك، إذ بذلك تتحقق نبوءة الساحرات الثلاث اللاتي ظهرن له في أول عهده، وتنبأن له باغتلاء العرش، وأنه لن يلقى حتفه حتى يرى غاب برنام Birnam wood، يتحرك نحو مقاطعة دنسنان Dunsinane، وما كان غاب برنام الذي شاهده جندي الطليعة يتحرك إلا جيش مكدوف متسترأً بأشجار اقتطعها وحمل كل جندي منهم شجرة يسير تحتها متخفياً لئلا يتمكنوا بذلك من مفاجأة العدو، والايقاع به على حين غرة. وهكذا أسفرت المعركة عن انهزام مكبث ولقاء حتفه على يد الابن الناصر.

وصاحب الأغاني^(١) يذكر كيف كانت زرقاء اليمامة ترى الجيش من مسير ثلاثين ميلاً، وكيف أن قوماً آخرين غزوا قبيلتها. فلما قربوا من مسافة منظرها، قالوا: كيف لكم الوصول مع الزرقاء، فأجمعوا على اقتلاع أشجار تستر كل منها فارساً إذا حملها. ففعلوا ذلك وساروا. فأشرفت الزرقاء كعادتها، فأجابت قومها وقد سألوها: ما نرى، قائلة:

(١) الأغاني. ج ٢ ص ٢١

سوّلت لمكبث نفسه التطلع إلى الملك ، فدعا الملك ، دنكن ، إلى وليمة وقضى عليه ليلاً ، ثم نصب نفسه ملكاً على الشعب ومن يدرس ما جاء على لسان هؤلاء الساحرات في رواية مكبث من أقوال دقيقة معقدة ويقابل ذلك بحديث الساحرات في العقيدة العربية يلقي تشابهاً يدعو إلى الإعجاب الشديد ، فساحرات مكبث من شأنهن طبخ الادواء ومزجها واستعمالها في جميع أعمالهن السحرية ، وشبهه بذلك ما جاء عن ساحرة أسعد الكبرى ، فقد ورد أنها

جاءت إليه الكبرى بأسقية شتى وفي بعضها دم كدر ثم إن الضيع الذي قدمته الساحرة الوسطى لأسعد هو من مطايا ساحرات أسعد ؛ وفي رواية مكبث تشير إحدى الساحرات إلى اتخاذ زوجها النمر مطية تحمله إلى حلب العربية ولا أدري ما الذي حدا بشكسبير إلى ذكر حلب البلدة السورية العربية . لو لم يكن بين هاتين الخرافتين من علاقة وثيقة وسبب متين —

أما وقد بسطنا بعض وجوه الشبه بين الخرافتين ، فمن المستحسن الاتيان بقصيدة أسعد كامل بكاملها ليتسنى بذلك مقابلتها مع الخرافة الشكسبيرية بالتفصيل والتدقيق

الدهر يأتيك بالمعائب و الأيام والدهر فيه معتبر
بيننا ترى الشمل فيه مجتمعا فرقه في صروفه القدر
لا ينفع المرء فيه حيلته فيما سيلقاه لا ولا الخذر
أتى زعيم بقصة (عجب) عندي لمن (يستردهذا) الخبر
يأتى بتصديقها الليالى و الأيام إن المقدور ينتظر
يكون في (الأسد) مرة رجل (ثم) له في ملوكه الخطر
مولده في قرى ظواهر همدان بتلك التي اسمها (خر)
يقهر أصحابه على حدث السن (ويحقرهم) فيحقر
حتى إذا أمكته صولته وليس يدري ما شأنه البشر
أصبح في هيوم^(١) على وجل وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم أزرى اديهم بجمله الصغر
أن يفقدوه لا در درهم لو عاموا العلم فيه لا فتخروا
حتى إذا أدركته روعته بين ثلاث وثلاثة صخروا

(١) الأسر (٢) الهوم

جاءت اليه الكبرى بأسقية شتى وفي بعضها دم كدر فقال هاتى إلى أنبرها فناولته فما تورع عن فنهته الوسطى فنازلها قالت له هذه مراكبنا فقال حقاً صدقت ثم سما فدق منه جنباً فغادره ثم أتته الصغرى تمرضه فقال عنها بمضجع ضجر كان إذ ذاك بعد صرخته فقلن لما رأين جراته في كل ما توجه به بوجهها وأنت للسيف والسنان وفي (وإن) أنت المهرىق (كل) دم فارشد ولا تستكن في (خر) فلست تلتذ عيشة أبداً نحن من الجن يا أبا كرب فما بلوناه فيك من تلف ثم أتى أهله فأخبرهم فسار عنهم من بعد تاسعة فحل فيها والدهر يرفعه في عظم الشأن وهر يشتمر حتى أتته من المدينة تشكو الظلم شمطاء قومها غدروا (أدت) إليه منهم ظلامتها ترجو به نأرها وتنتصر فأعمل الرأي في الذي طلبت (فكان) كل بذاك بأنمر فعبا الجيش ثم سار به قد ملأ الخافقين عسكره تعم أعداءه (كثابه) وليس يبق فيهم ولا يذر حتى مضى منه (لثانية) وفاز بالنصر ثم ينتصر إنا وجدنا هذا يكون معاً في علمنا والمليك مقتدر فالحمد لله والبقاء له كل إلى ذى الجلال مفتقر

(السط - شرق الاردن) هريسي القموسى ب . ع
مدرس اللغة الانجليزية في مدرسة السلط التجهيزية

(١) الذعر (٢) الومر